الإمام علي عليه السلام الأحرص على وحدة الأمة

الشيخ حسن الصفار

يفخر الإمام علي عليه السلام بأنه الأحرص على جماعة الأمة والفتها، كما ورد في كتاب له ذكره الشريف الرضي في نهج البلاغة يقول فيه: "وَلَيْسَ رَجُلٌ فَاعْلَمْ أَحْرَصَ عَلَى جَمَاعَةِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وَأُلْفَتِهَا مِنِّي، أَبْتَغِي بِذَلِكَ حُسْنَ الثَّوَابِ، وَكَرَمَ الْمَآبِ. وَسَأَفِي بِالَّذِي وَأَيْتُ عَلَى نَفْسِي".

وسيرة علي تصدق قوله وتثبت دعواه، فقد غضّ طرفه عن حقه في الخلافة والقيادة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

كان بإمكانه أن ينبري للدفاع عما يعتقد أنه حق له، وكان يعلم أن في توليه الخلافة مصلحة للأمة وللرسالة، لكنه وجد أن هذا التصدي وهذا الموقف يضر بالمصلحة العامة في ذلك الظرف، ويؤدي إلى فتنة واحتراب داخلي. حتى أن أبا سفيان جاءه – كما ذكر ابن الأثير في تاريخه – وقال: ابسط يديك أبايعك، فوالله لئن شئت لأملأنها عليه خيلًا ورجالًا. فزجره علي وقال: "وَاللَّهِ إِنَّكَ مَا أَرَدْتَ بِهَذَا

إِ ّ َلا الْفِتْنَةَ، وَإِ ّ َكَ وَاللّ َهِ طَالَمَا بَغَيْتَ لِ ْلإِسْ َلامِ شَرّ ًا! َلا حَاجَةَ لَ َنَا فِي نَصِيحَتِكَ َ".

وجاءه عمه العباس بن عبدالمطلب وقال له: أبسط يدك أبايعك، فيقال: عم رسول ا بايع ابن عم رسول ا ، ويبايعك أهل بيتك، فإن هذا الأمر إذا كان لم يقل".

لقد امتنع الإمام علي عن بيعة أبي بكر أيامًا أو شهورًا، كما ذكرت المصادر التاريخية، لكنه حين رأى جديّة خطر الردة عن الإسلام، وإمكانية تعرض كيان الأمة للاهتزاز، بحصول أي خلاف وتنازع، انضوى تحت راية الخلافة، كما يقول عليه السلام فيما روي عنه: (فَمَا رَاعَنِي إِ ّ َلا انْثِيَالُ النّ َاسِ عَلَى فُ َلانٍ يُبَايِعُونَهُ فَأَمْسَكْتُ يَدِي حَتّ َى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النّ َاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ ا ْلإِسْ َلامِ يَدْعُونَ إِلَى مَحْقِ دَيْنِ مُحَمّ َدٍ فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ ا ْلإِسْ َلامَ وَأَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ ثَلْماً أَوْ هَدْماً تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيّ َ أَعْظَمَ مِنْ فَوْتِ وِ َلايَتِكُمُ).

حماية كيان الأمة

والمصداق الأهم لحرصه على وحدة الأمة والمصلحة العامة هو دعمه لكيان الخلافة برأيه ومشورته، فهو لم يعتزل ولم يخضع لأي مشاعر انتقامية، ولا تعامل مع الخلفاء انطلاقًا من موقف شخصي، بل إن علي بن أبي طالب تحمل مسؤوليته، فكان مع الخلفاء ومع الأمة، يحضر المسجد، ويشارك في صلاة الجماعة، يُسْتَشَار، ويشير فيعطي رأيه، وينقذ الأمة، ويساعد الخلفاء في مواقف كثيرة.

فهناك أكثر من تسعين موردًا في قضايا عسكرية واقتصادية وسياسية ودينية استشار فيها الخليفة عمر الإمام عليًا وأخذ برأيه، سجلها مع ذكر مصادرها الشيخ نجم الدين العسكري في كتابه (علي والخلفاء).

ولنا أن نتساءل: كيف كان الخليفة عمر يستشيره إن لم يكن يثق به ويطمئن إلى رأيه؟

إن عليًا عليه السلام لم يكن ينظر إلى الخلفاء من موقع العداء الشخصي فيكيد لهم، ويسعى للانتقام منهم، وهم في المقابل كانوا ينظرون لعليّ كمعين ثقة، ومساعد أمين، فيما هو لمصلحة الأمة والدين، وإلا لو كان عمر وأبو بكر ينظران لعليّ كعدو لما رجعا إليه ووثقا برأيه، والإمام علي – في المقابل – ما كان يتعامل من موقع العداوة الشخصية، وإنما كان يمحضهم النصيحة ويشير عليهم بما ينفع الأمة وكيان المسلمين آنذاك، حتى أُثِرَ عن الخليفة عمر أنه كان يتعوذ با من معضلة ليس لها أبو الحسن

علي ، وروى ـ أيضًا ـ عن عمر قوله: «لولا علي لهلك عمر».

ومع أن الإمام عليه السلام أبدى عدم رضاه عن بعض السياسات في عهد الخليفة عثمان، وبخاصة دور البطانة التي كانت حول الخليفة، إلاّ أنه ما انفك يقدم النصيحة والرأي لعثمان، وحاول كثيرًا أن يعالج موضوع التمرد على الخليفة، فكان واسطة وسفيرًا بين المعارضين والخليفة أكثر من مرة، ولكن الأمر خرج من يده، وحينما حوصر عثمان ومُنِع عنه الماء استنجد بعليٍّ، فبعث الإمام ولديه الحسنين بِقِرَب الماء حتى يدخلوها إلى بيت عثمان.

وفي نصوص تاريخية مذكورة في مختلف كتب السنة أنه عليه السلام أمر ولديه الحسنين أن يبقيا على باب عثمان حراسةً له، ولكن المعارضين تسلقوا من بيوت الجيران على دار الخليفة.

إستيعاب المعارضة

كما أن حرصه عليه السلام على الوحدة أيام خلافته هو الذي دفعه لقبول التحكيم ووقف الحرب في صفين، لأن ذلك كان رأي الأكثرية من جيشه.

وحرصه عليه السلام على الوحدة هو الذي جعله يتحمل استفزازات الخوارج الذين كفروه وكانوا يجهرون بمعارضته حتى أثناء خطبته في المسجد، فلما أكثروا عليه قال عليه السلام: (كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ، لَكُمْ عِنْدَنَا ثَلاثُ خِصَالٍ: لا نَمْنَعُكُمْ مَسَاجِدَ اللّهِ أَنْ تُصَلّوا فِيهَا، وَلا نَمْنَعُكُمُ الْفَيْءَ مَا كَانَتْ أَيْدِيكُمْ مَعَ أَيْدِينَا، وَلا نَبْدَؤُكُمْ بِحَرْبٍ حَتّى تَبْدَءُونَا بِهِ) .

منطلقات النهج الوحدوي

لماذا هذه الدرجة القصوى من الحرص على الوحدة في سيرة الإمام علي عليه السلام بحيث لا يمكن أن تجدها في سيرة غيره؟

يمكننا أن نتحدث عن ثلاث منطلقات كانت وراء هذا الحرص الأكبر عند الإمام علي والأئمة من أهل البيت عليهم السلام على الوحدة:

الأول: المنطلق الديني

فالأئمة عليهم السلام هم أعرف الناس بأغراض الدين ومبادئ الشريعة ومقاصدها، وبالتالي هم أحرص الناس على تحقيق تلك الأغراض والوصول إلى هذه المقاصد.

والوحدة الإسلامية من أهم مقاصد الدين ومن أهم أهداف الرسالة المقدسة، فهي ليست مسألة تكتيكية أو عملاً وقتياً، وإنما هي مبدأ يتعبّد الإنسان من خلاله إلى ا، وآيات القرآن الكريم شاهدة على ذلك، فهناك الكثير من الآيات التي تؤكد هذا الأمر، كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ ، وفي آية أخرى: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ... ﴾ ، وغيرها من الآيات الكثيرة التي تصبّ في هذا المجال.
وكما نقل عن الشيخ محمد الحسين أل كاشف الغطاء قوله: "بني الاسلام على دعامتين كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة".

إن الإمام عليًا عليه السلام يتقرب إلى ا ويبتغي ثوابه بحرصه على الوحدة، كما يقول عليه السلام وَلَيْسَ رَجُلٌ فَاعْلَمْ أَحْرَصَ عَلَى جَمَاعَةِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلىاعليهوآله وَأُلْفَتِهَا مِنِّي، أَبْتَغِي بِذَلِكَ حُسْنَ الثَّوَابِ، وَكَرَمَ الْمَآبِ. وَسَأَفِي بِالَّذِي وَأَيْتُ عَلَى نَفْسِي".

الثاني: الوعي الحضاري
كان الإمام علي عليه السلام يفهم الإسلام مشروعًا حضاريًا لبناء أمة رائدة وكيان قوي، وتقديم أنموذج للبشرية، كما يقول تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ... ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ ... وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

ولا يتحقق هذا المشروع إذا انشغل أبناؤه بالمصالح الخاصة والقضايا الجانبية، يقول الإمام علي عليه السلام: "فَإِنَّ اَ سُبْحَانَهُ قَدْ امْتَنَّ عَلَى جَمَاعَةِ هذِهِ الأُمَّةِ فِيمَا عَقَدَ بَيْنَهُمْ مِنْ حَبْلِ هذِهِ الأُلْفَةِ ... لأِنَّهَا أَرْجَحُ مِنْ كُلِّ ثَمَن، وَأَجَلُّ مِنْ كُلِّ خَطَر".

وورد عنه عليه السلام أنه قال: "إِنَّ اَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُعْطِ أَحَداً بِفُرْقَةِ خَيْراً مِمَّنْ مَضَى، وَلاَ مِمَّنْ بَقِيَ".

الثالث: طهارة النفس
ذلك أن من أبرز العوائق التي تكون عقبة في طريق تحقيق الوحدة بين أبناء الأمة، أن بعض أبنائها قد يدرك أبعاد وأهداف الوحدة، لكن الطموح إلى بعض المطامع والمصالح الشخصية أو الفئوية هي التي

تجعله يميل عن طريق الوحدة، ويسلك طريق الصراع والخلاف من أجل أن يحقق مصلحة مّا ومكسبًا معينًا، أما أهل البيت عليهم السلام فإن نفوسهم كانت طاهرة، يقول تعالى: ﴿ ... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ ، فلم يكن في نفوسهم حبّ لمنصب، أو مصلحة، أو مكسب.

إن المطامع والمكاسب الفردية والفئوية هي التي تجعل البعض يسير في طريق الانشقاق والخلاف والصراع. أما أهل البيت فإن نفوسهم طاهرة من هذه المآرب والأغراض، لذلك كانوا أحرص الناس على وحدة المسلمين.

فقدّموا التنازلات والتضحيات، وقدّموا أغلى الأثمان من أجل أن يحافظوا على وحدة الأمة الإسلامية، فجزاهم الله عن أمة جدّهم صلى الله عليه وآله خير الجزاء.

ويشير الإمام علي عليه السلام إلى تساميه عن المطامع والمطامح بقوله عليه السلام: "وَاللَّهِ لَأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً الْتِمَاساً لِأَجْرِ ذَلِكَ وَفَضْلِهِ وَزُهْداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ وَزِبْرِجِهِ".

ويقول عبدالله بن عباس: دَخَلْتُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام بِذِي قَارٍ، وَهُوَ يَخْصِفُ نَعْلَهُ، فَقَالَ لِي: مَا قِيمَةُ هَذَا النَّعْلِ؟ فَقُلْتُ: لَا قِيمَةَ لَهَا. فَقَالَ عليه السلام: وَاللَّهِ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ إِلَّا أَنْ أُقِيمَ حَقّاً أَوْ أَدْفَعَ بَاطِلًا".

تأمّل الموقف الوحدوي

كم نحن بحاجة إلى قراءة هذه السيرة العلوية العظيمة، وتأمل هذا الموقف الوحدوي الصلب، لنتحمل مسؤولياتنا تجاه ديننا ومجتمعنا ووطننا في رعاية الوحدة والحرص على حمايتها، في مختلف مستوياتها: على الصعيد الاجتماعي، وعلى الصعيد الوطني، وعلى مستوى الأمة، وخاصة في هذه الظروف الخطيرة التي تتعرض فيها أوطان المسلمين إلى فتن الاختلاف، ومؤامرات التقسيم .